نشأة المدنيـــــة

للاستاذ زكى نجيب محمود

كان راسخا فى الأذهان الى عهد قريب أن دراسة التاريخ بعيدة كل البعد عن دقة العلوم الطبيعية ، ذات القوانين الثابتة المطردة ، من حيث طريقة البحث ، وانتزاع الاحكام الكلية من الأمثلة الجزيية ، لا ه رواية لاعمال الانسان وسلوكه فرداً ومجتمعاً ، وعلى ذلك فهو لايخضع لقانون دقيق ، كما تخضع العلوم الرياضية مثلا ، مادامت اعمال الانسان نفسها لاتطرد ولا تستقيم مع قانون خاص ، وبناء على تلك العقيدة الراسخة ، لم يحاول مؤرخ فى العصور الماضية ـ فيما نعلم ـ أن يستنبط من شتيت الاخبار التى يرويها التاريخ قانونا عاما ينتظم الجماعة الانسانية ، كما استنبط الرياضيون من مختلف المظاهر الكونية مجموعة القوانين اليقينية التى لايجد الشك اليها سبيلا .

ولكن دراسة التاريخ أخذت تخطو فى العصر الحديث خطوات واسعة نحو الدقة العلمية واستخلاص القوانين العامة من الجزئيات التى تزخر بها بطون المجلدات . ومن أدق ماقرأنا فى هذا الموضوع ، ما كتبه توماس بكل ، المؤرخ المعروف ، الذى حاول فى كتابه « تاريخ المدنيـة فى انجلترا » أن يخضع النشاط الانسانى ، الذى يبدو فى احداث التاريخ المختلفة ، الى نواميس ثابتة دقيقة ، كالعلوم الطبيعية سواء بسواء ، وكأنى به قدوضع المجموعة البشريه فى مخبار وأخذ يضيف اليها من المواد ألوانا مختلفة ، حتى انتهى به البحث الى تلك النتائج القيمة التى دونها فى كتابه المذكور .

وسنحاول فى هذا البحث أن نحلل العوامل الاساسـية ، والقوانين العامة ، التى أنتجت المدنية الانسانية من أحضان الهمجية الأولى ، لانها لم تنشأ حيث نشأت اعتباطا وعن طريق الصدفة العمياء ، ولكنها نتائج محتومة لمقدمات طبيعية .

ولكن ماهى هذه المدنية التى نحاول أن نتتبع أسـباب نشأتها ؟ أليس جـديراً بنا ان نلم الماما سريعة بمعناها أولا ، حتى يقوم البحث على دعامة قوية وأساس متين ؟ نعم ، ولكن دون ذلك البحوث المستفيضة وليس هذا المقال القصـير مجالا لهذا البحث المتشعب الأطراف ، والذى لاأحسب موضوعا بلغ فيه الخلاف بين الباحثين من الشدة والاتساع مابلغه فى هـذا الموضوع ، وأذكر أنى قرات ملاحظة طريفة أوردها الكاتب « الانجليزى هافلوك اليس » فى مقال كتبه عن المدنية ، حيث يقول عن هذه الكلمة انها لم ترد فى دائرة المعارف التى وضعها جماعة الانسيكلوبيديين لكثرة مايقوم حول تعريفها من خلاف .

ولكن مهما يكن من أمر ذلك الخلاف فى مدلول المدنية ، الذى منشؤه تباين وجهات النظر للحياة ، فان أحـداً لا ينكر أنها تعتمد فى تقدمها بوجه عام على تقدم العلوم والمعارف أكثر من أى شىء آخر ، وأكاد أقول فى شىء من اليقين إنها عبارة عن كمية المعارف التى وصل اليها الانسان ، لاأكثر ولا أقل ، على الرغم من تلك الدعوى التى لايؤيدها منطق ولا تاريخ . والتى يأخذ بها بعض المفكرين فى كثير من النعرة الواهية ، وهى أن المدنية رهينة بتقدم الأخلاق وحدها ، ويكفى أن تلقى نظرة عجلى الى تاريخ الانسانية منذ فجرها حتى الآن ، لتعلم أن الأخلاق فى العصور الاولى هى هى الأخلاق فى العصر الحاضر ، لم تتقدم إلا بمقدار ضئيل جداً لايكاد يذكر ، فلا يزال الصدق محمودا والكذب مرذولا ، ولا تزال الأمانة خيراً والخيانة شراً ... وأما العلوم فهى تسير كل يوم ، إن لم يكن كل ساعة سيراً حثيثاً الى الامام .

يتضح من هذا أن المدنية فى جوهرها عبارة عن المعارف الانسانية ، فاذا ما أردنا أن نبحث عن الأسباب التى أدت الى نشأة المدنية ، فلنبحث عن نشأة العلوم ، مادام صنوين متلازمين ، أو بعبارة أدق لانهما شىء واحد .

حاول أن تصور لنفسك الجماعة الانسانية فى فجر التاريخ ، فترى انسانا لايملك من الأدوات التى يستعين بها فى عمله الشاق شيئا ، ترى انسانا يعمل بيده كل شىء ، لا يكاد يستيقظ من نومه حتى يمشى فى مناكب الارض سعياً وراء قوته من نبات وحيوان ، ويظل فى هذا السعى حتى يغشاه الليل بظلمته ، فيركن الى كهف يأوى اليه مهدود الجسد ، فيستغرق فى النعاس حتى تشرق عليه الشمس كرة أخرى ، فينهض من مخدعه ليعيد فى يومه سعى أمسه .

فهذا الذى يستنفد نهاره فى الحصول على قوته وسائر ما تقتضيه الحياة من شئون ، ويقضى ليله فى جوف الكهف نائما ، لايكون لديه من الفراغ مايمكنه من التفكير فى خلق السماوات والارض ، والتفكير أولى مراحل العلم ، وإذن فالعلوم كامنة فى ثنايا العدم ، ولا يكتب لها الظهور الى ضوء الوجود إلا إذا تبدلت الحياة غير الحياة والانسان ، فتتوفر لجماعة انسانية بيئة

تساعدها على انتاج محصول يزيد على طعام يومها ، حتى يتكون فيض انتاجي لايلبث أن يتجمع عند أفراد قليلين ، هم الاقوياء عادة ، وبذلك يستطيع ذلك النفر القوى أن يتخلص من المجهود الذى كان يبذله لتحصيل ضرورات الحياة ، وإذن فقد تمتع بالفراغ الذى لابد أن يستتبع التفكير فى مظاهر الكون ، وهذا التفكير هو النواة الأولى للعلوم والمعارف المختلفة .

يتضح مما سبق أن الشرط الأول لنشأة العلوم — وبالتالى المدنية — هو خصوبة التربة . الذى يؤدى الى وفرة الانتاج بما يزيد على حاجة الاستهلاك ، وأمثلة ذلك كثيرة فى التاريخ ، فالمدنية المصرية القديمة لم تنبت فى وادى النيل إلا لخصوبة تربته ، كذلك الامة العربية كانت قبل إسلامها أقرب الى الهمجية منها الى أى شىء آخر ، فلما جاء الاسلام ، ثم تبعه انتقال الأعراب الى الوديان الخصبة كوادى النيل ووادى دجلة والفرات ، حيث الخصب والنماء والثروة انقلب هؤلاء الأجلاف شعباً متحضراً بلغت مدنيته حداً قل أن شهد مثله التاريخ .

ويجدر بنا أن نشير هنا الى أن المدنية الاوربية تختلف فى أسباب نشأتها عن المدنيات القديمة ، فبينا هذه تنشأ من خصوبة التربة ، نرى الاولى نتيجة لاعتدال المناخ . ولما كانت المدنيات القديمة قد تأثرت بالعوامل الطبيعية وحدها ، أعنى أنها نتيجة لتفاعل المناخ والتربة من غير أن يتدخل الانسان تقريباً ، وخصب التربة محدود الغلة مهما أجيد استغلاله فى حين أن الحضارة الاوربية لايقف فى سبيلها شىء لأنها أثر لتفاعل المناخ وذكاء الانسان الذى لا يمكن أن نتصور له حدوداً يقف عندها ، لهذا فالمدنية الاوربية أقوى أساساً وأعمق جذوراً وابعد مدى من المدنيات القديمة جميعاً .

ولكن اذا كانت المدنية فى أول أمرها — كما بينا — تابعة لخصب التربة ، حتى يتوفر من المحصول الزائد مايتجمع فيكفى فئة من الناس مؤونة العمل ، وبذلك تبدأ الطبقة العلمية فى الظهور ، فلماذا اقتصرت المدنيات على المنطقة المدارية ، حيث ظهرت فى مصر والشرق الأدنى والهند وبيرو ومكسيكو ، وكل هذه تكاد تكون على خط عرض واحد ، نقول لماذا لم تنشأ المدنية فى المنطقة الاستوائية ، مع أنها وفيرة الانتاج النباتى الذى يحقق شرط الفراغ الضرورى للتفكير ، فالعلم ، فالمدنية ؟ الجواب على ذلك سهل ميسور ، وهو أن الجهات الحارة لاتساعد الانسان على التفكير والنشاط ، بل من شأنها أن تقعده وتعجزه عن ضروب النشاط جميعا ، ومن جهة أخرى ، فان الوفرة النباتية الطبيعية ، التى ليست ثمرة العمل الانسانى ، تؤدى الى التواكل وتعمل على خمود الذهن ، لان الحاجة أم الاختراع . وليس هناك حاجة تشحذ القوى العقلية لاكتشاف أى اختراع . إذن فأنسب مكان تظهر فيه المدنية فى أول عهدها ، هو ذلك الذى يضطر الانسان الى العمل لتحصيل القوت ، والذى يكون من خصبه مايستطيع منه ان يمد الانسان بغلة تربى على حاجة الاستهلاك .

ولكن قد يعود القارىء فيعترض بقوله إن هذا المناخ المعتدل الذى يبعث الانسان على النشاط الذهنى ، وتلك الخصوبة التى توفر للانسان محصولا زائدا ، قد يتوفران فى كثير من بقاع أوروبا مثلا ، فلماذا لم تظهر المدنية فى تلك الربوع فى بادىء أمرها ؟ هنا يتقدم (بكل) فى كتابه الذى ذكرناه فى أول هذا المقال ، بتعليل دقيق يدعو الى الاعجاب واطالة النظر فهو يرى أنه لابد للمدنية فى مهدها من كثرة عدد السكان بحيث يكون التفاوت عظيما بين الطبقات ، حتى تستطيع الطبقة الحاكمة أن تتمتع بكامل السلطان المطلق على أفراد الشعب ، فلا ينازعونها فى الاستيلاء على ثمرة مجهود غيرها ، وزيادة السكان بما فيها من تفاوت الطبقات ، ميسورة فى الجهات الدافئة دون الشمالية الباردة واليك البيان :

لا ريب فى أن الانسان يدور مع الطعام وجودا وعدما فبينا تراه يتكاتف ويزدحم فى البقاع الخصيبة ، ترى الصحراوات خرابا لا يكاد يعمرها أحد ، وهكذا يتوقف عدد السكان كثرة وقلة ، على درجة خصوبة الارض ، ذلك لأنه كلما كثر الطعام كان الحصول عليه ميسوراً لكل انسان ، ومادامت غائلة الجوع مأمونة الجانب ، فزيادة النسل تطرد اطرادا لا يحول دونه شىء ، والعكس صحيح . أى كلما قل الطعام وعز مناله على الفقراء ، تناقص السكان حتى يتكافأ عددهم مع ما تنتجه الأرض من محصول .

ولسنا بحاجة الى ذكر ضرورة الطعام للكائن الحى لأدائه وظيفتين هامتين لا مندوحة عنهما لحفظ الحياة : فهو الذى يحفظ حرارة الجسم ، كما أنه يعوض ما يفنى من الانسجة اثر القيام بالعمل ، ولكنا نريد أن نرتب على ذلك نتيجة لها خطرها فى موضوع بحثنا ، فمن الحقائق المعروفة أن حرارة الجسم تتولد من اتحاد أكسجين الهواء الذى نتنفسه مع كربون الطعام الذى نأكله ، فيولد هذا الاتحاد الحرارة اللازمة لحفظ كيان الانسان ، فلكى يحتفظ الجسم بحرارته ، يجب أن يناسب بين اكسجين الهواء وكربون الطعام ، أى يجب ان

يحصل من الطعام على مقدار يكون مافيه من كربون متناسبا مع الاكسجين الذى يصل اليه عن طريق التنفس .

ولما كان الانسان فى الجهات الباردة يتنفس اكسجيناً أكثر من زميله فى الجهات الدافئة: أولا، لان الهواء أكثف فى الجهات الباردة فيكون مقدار الاكسيجين فى الشهقة الواحدة أكبر مما لو كان الهواء مخلخلا خفيفاً . وثانياً، لأن الانسان يتنفس فى الجهات الباردة مرات أكثر عدداً فى كل فترة زمانية . فهذا التنفس السريع من الهواء الكثيف يضاعف كمية الاكسجين التى تصل الى الجسم فى الجهات الباردة . والنتيجة اللازمة لذلك أن الانسان فى هذه الجهات يجب أن يمد جسمه بمقدار من الكربون فى طعامه أكبر جدا مما يتطلبه زميله ساكن الجهات الحارة . اذن فأهل الشمال فى حاجة الى لحوم الحيوانات المختلفة لما تحتوى عليه من الكربون الذى يتطلبونه فى طعامهم ، مع أن أهل الجنوب يكادون يقتصرون على النباتات وحدها . ومن الحقائق العجيبة التى تلفت النظر ، أن كمية الحيوان أقل جدا من كمية النبات ومعنى هذا أن أهل الشمال لا بد أن يبذلوا أضعاف المجهود الذى يبذله أهل الجهات الدافئة للحصول على طعامهم ، ولا مندوحة من التعرض فى سبيل ذلك الى أشق الاخطار وأعنف الصعاب ، حتى أن بعض الكتاب يعلل بذلك روح المخاطرة التى تميز الاخلاق الاوربية . واذن فالنتيجة الطبيعية لقلة الطعام فى الجهات الباردة دون الجهات الحارة ، زيادة السكان فى الثانية بنسبة أعظم من الأولى . وزيادة السكان معناها كثرة الايدى العاملة ، وكلما كثرت هذه الأيدى قلت أجورها تبعا لقانون العرض والطلب ، وقلة أجور الطبقة العاملة معناها أن تتجمع الثروة فى أيد قليلة — هى الفئة القوية لأن توزيع الثروة هو توزيع للقوة — وهكذا تزداد هذه الطائفة ثراء على حساب أجور العمال . ثم يتسع هذا الفرق ويزيد حتى يتكون فى الامة طبقتان اجتماعيتان ، بينهما فارق شاسع فسيح : طبقة الملوك والاشراف ، والطبقة الفقيرة العاملة . وبديهى ان هذا الفرق الاجتماعي يكون فى الجهات الدافئة اكثر منه فى الجهات الباردة حيث السكان قليلون بسبب قلة الطعام ، فتزداد أجورهم نوعا ، وبذلك تقل الثروة التى تتجمع فى أيدى الفئة القوية ، وتضيق مسافة الخلف بين الطبقتين ، ولعل هذا هو السبب فى تمكن النزعة الاستبدادية فى بلاد الشرق ، ونماء الديمقراطية فى ربوع الغرب . ويظهر مما سبق ان العاملين اللذين اشترطهما «بكل» لقيام المدنية يتوفران فى الجهات الدافئة قبل الباردة .

يحسن أن ألخص هذا التفصيل فى سلسلة منطقية يسهل استيعابها حتى لا تتشعب أطراف الموضوع ، فيفقد القارىء الرابطة التى تصل بعضها ببعض :

زيادة السكان تتبع كثرة الطعام

ولما كان الطعام الضرورى للحياة اكثر فى الجهات الحارة منه فى الجهات الباردة فقد ازداد عدد السكان فى الجهات الحارة بنسبة أكبر من الجهات الباردة ولكن ازدياد السكان يؤدى الى قلة الاجور.

ثم يؤدى هذا بدوره الى ازدياد الثروة عند الطبقة القوية.

اذن فالطبقة غير المنتجة تظهر فى الجهات الحارة قبل ظهورها فى الجهات الباردة . ولما كانت نشأة العلوم — أى المدنية — رهينة بوجود هذه الطبقة غير المنتجة التى تستطيع أن تتفرغ للتفكير فالنتيجة المنطقية لكل هذه المقدمات هى أن المدنية تنشأ فى الجهات الدافئة قبل نشأتها فى الجهات الباردة ، ولكنها اذا مانشأت فى هذه الجهات الأخيرة ، كانت أقوى أساساً لما ذكرناه من أنها فى تلك الجهات نتيجة لتأثير المناخ فى الانسان ، فى حين أنها فى الجهات الدافئة نتيجة لتأثير المناخ فى التربة، ولذلك نراها تسير نحو الجهات الباردة كلما ارتقت وازدادت قدمها رسوخا ، ولو أنا تصفحنا التاريخ على عجل للاحظنا لأول وهلة أنها نشأت فى مصر (وهى منطقة دافئة) ثم أخذت تسير نحو الجهات الباردة شيئا فشيئا ، فقد انتقلت الى الشرق الأدنى ، ثم إلى اليونان ، ثم الى ايطاليا ، ثم الى أواسط أوروبا ، وهى الآن رابضة فى شمال غربى أوروبا ، ويتنبأ بعض الكتاب بأنها ربما استقرت فى اسكندناوه فى مستقبل أيامها ، وهناك من الدلائل مايؤيد ذلك .

لقد شرحنا فيما سبق القواعد العامة التى تتحكم فى قيام المدنيات ، ورأينا أنها نتيجة منطقية لمقدمات طبيعية ، وانها لاتخبط خبط عشواء فى سيرها . ويجمل بنا الآن أن نطبق تلك القواعد الشاملة على نشأة المدنية المصرية زيادة فى الايضاح

ذكرنا أن بواعث المدنية هى :

(١) اعتدال الحرارة لأن الحرارة الشديدة تشل قوة التفكير

(٢) خصب التربة

وهذان الشرطان متوفران فى وادى النيل ، فهو فى المنطقة

البقية على صفحة (٢٣)